

# القضية لكافكا

د. مصطفى ماهر

أولاً : مقدمة :

ذاتهم ، ثم يحللون ذلك العنصر الذاتى الذى صوبه ويخلصون الى أحكام ، أصوب مايمكن أن يقوله المنصف عنها انها أحكام ذاتية . والسبب الثالث أن نفرا من اليهود ذوى المبادئ الخطيرة وضعوا أيديهم على أعمال كافكا ، وأرادوا لها صورة بعينها - اعتمادا على أن فرانتس كافكا يهودى - وكتبوا عن كافكا ما أرادوا ، وعظموا فى أنفسهم تعظيما وأكبروا آراءهم الشخصية فى غير تحرج . وهكذا فانا عندما نكتب عن كافكا ، لانجد أمامنا أعماله فى طبعات علمية موثوق بها تمام الوثوق ، ولا نجد وضوحا فى تفسير مؤلفاته ، ولا نجد تنزها عن الغرض سياسيا كان أو دينيا أو مذهبيا فى أكثر ماكتب عنه ، ويكون واجبا لهذا أن نجرد صورة كافكا مما أضيف إليها وأن نحاول اظهارها على حقيقتها وأصالتها .

فرانتس كافكا انسان . وأعمال فرانتس كافكا عنصر من عناصر الثقافة الانسانية فى القرن

ليست الكتابة عن فرانتس كافكا بالأمر الهين . ولهذا أسباب . فأعمال كافكا ظهرت بعد موته ، إلا أقلها ، وظهرت فى طبعات لايرضى بها العلماء المتخصصون رضاء تاما ، فقد أعطيت بعضها أسماء لو بعث فرانتس كافكا اليوم حيا لاندعش لها غاية الدهشة ، وقد رتبت ترتيبا ، لم يقصده المؤلف لأنه لم يكن قد فرغ منها عندما انصرف عنها ، وقد عدلت لغويا وأسلوبيا - تعديلا يقال انه طفيف - ولكننا لانعرف كمياته ولا حدوده . هذا سبب أول . أما السبب الثانى فهو تجاذب النقاد أعمال كافكا الى ماشاءوا من اتجاهات ، فهذا الناقد يفسر كافكا وأعماله تفسيرا دينيا ، وناقد آخر يذهب فى فهم أعمال كافكا مذهبيا سيكولوجيا ، وثالث يعتبره اماما فى الاصلاح الاجتماعى وفى الاشتراكية وهكذا . وأغلب الظن أن هؤلاء النقاد وان لم يجانبهم الصواب كلية ، يصبون فى أعمال كافكا

العشرين ، عنصر أساسى ، لا يمكن تصور هذه الثقافة بدونه . فرانتس كافكا انسان عاش حياة معتلة لأنه خرج الى الدنيا ضعيف الجسم ، مهزوز الصحة ، مضطرب الوجدان ، ثم اصطدم بالدنيا التى لم تفهمه ولم تحنو عليه - فى البيت - فى المدرسة - فى العمل - فظن أن الموت هو الغاية وعكف على نفسه يغوص فيها أو يستخرج ماتجمع فيها من خبرات ويصبها فى قالب متشائم كعصره كله ، فجاءت أعماله تتصف بالتناقض الشديد ، فهى منطقية ولا منطقية ، وهى مضحكة ومبكية ، وهى خيالية وواقعية فى وقت واحد ، ولكنها دائماً صادقة خالصة .

ثانيا : حياته :

ولد فرانتس كافكا فى مدينة براغ فى الثالث من شهر يوليو عام ١٨٨٣ . ونحن نعرف اليوم مدينة براغ عاصمة لجمهورية تشيكوسلوفاكيا . ولكن هذه الجمهورية حديثة نسبيا ( أعقاب الحرب العالمية الأولى ) وأهم مايلفت النظر فيها أن شعبها يتكون من عناصر مختلفة ، كان منها عنصر ألماني فى منطقة بوهيميا والزوديتلاند . هذا العنصر الألماني هو الذى يهنا هنا . ويهنا أن نذكر عنه أنه كان نشيطا فى كل نواحي الحياة حيث كان ويشهد على ذلك مثلا أن أول جامعة ألمانية خرجت الى الوجود هى جامعة براغ الألمانية فى عام ١٣٤٨ ( أول جامعة تشيكية يرجع تاريخها الى ١٨٨٢ ) على أن الوجود الألماني على هيئة أقلية أدى الى ظهور حزازات بين الألمان والعناصر الأخرى ، وكان الألمان فى الفترة التى عاش فيها كافكا يحسون كأنهم محصورون ولا يعرفون المصير الذى سيتهون اليه . وقد حدث فى عام ١٩١٨ أن كون ألمان

الزوديتلاند حكومة خاصة بهم وانضموا الى النمسا ، ولكن التشيك مالبنوا أن احتلوا المنطقة وسادت بين الجانبين حالة توتر شديدة . والشواهد التى بين أيدينا تدل على أن الطبقة الألمانية - اذا صح هذا التعبير - فى مدينة براغ كانت - حول عام ١٩٠٠ تقدر بـ ٣٤ ألف نسمة وكان سكان المدينة كلها عددهم ٤٥٠ ألف نسمة ، وأن تلك الطبقة الألمانية كانت هى الطبقة الرفيعة ، أو كانت على الأقل تتمتع بسمعة تصورها على هذا النحو .

وقد ذكر فرانتس كافكا فى يومياته وفى خطابه الشهير الى أبيه معلومات كثيرة عن أبيه وأمه وأقاربه . ومن هذا نعرف أن أمه كانت من عائلة أرفع قدرا من عائلة أبيه ، وان كانت عائلة الأم قد ضمت أفرادا غير أسوياء ليسوا بالقليل . يحكى كافكا مثلا عن جد أمه أنه « كان كل يوم يستحم فى النهر وانه كان فى الشتاء عندما تتجمد مياه النهر يصطنع لنفسه بالفأس فى الجليد حفرة ليستحم فيها » . ويحكى عن الجدة انها ماتت منتحرة ، بأن القت بنفسها فى النهر ويقول : « وقد اعترى الجدة حزن شديد ، فرفضت الطعام ، وصامت عن الكلام .. وذهبت ذات يوم للنزهة ثم لم تعد ، وأخرجوا جثتها من نهر الألبه » . ويروى كافكا أن أمه حكى له عن خال لها اسمه ناتان ، كان مجنونا . أما بقية عائلة الأم فكانت غنية ، وكان يغلب عليها الاشتغال بالتجارة والصناعة ، كان لأم كافكا أخوة ، أخواله اذن ، اتجهوا فى حياتهم اتجاهات عجيبة . أحدهم واسمه ألفريد كان مدير السكك الحديدية فى مدريد ، وآخر اسمه يوزف كان يمتلك ويدير شركة تجارية مركزها باريس كانت تتجسر فى بضائع الكونغو وثالث هو ريشارد كان يحترف

التجارة ، ورابع هو زيجفريد كان واسع العلم  
يحترف الطب ويعيش في الريف ، وكان فرانتس  
كافكا على علاقة وثيقة به خاصة ، وخامس هو  
رودولف كان يعمل كموظف حسابات في مصنع  
بيرة واعتنق الكاثوليكية وكان - مثل ابن اخته  
فيما بعد - غامضا حزينا عكوبا مسرفا في التواضع  
والخجل . أما أبو فرانتس كافكا ، هرمن كافكا ،  
فهو تشيكي من أصل وضع من جنوب منطقة  
بوهيميا - وكلمة كافكا كلمة تشيكية معناها  
- طائر الزيف وهو نوع من الغربان - فقد كان  
أبوه جزارا ، وكان أولاده ومنهم هرمن كافكا  
يساعدونه في عمله . ويهمن أن نوضح هنا أن والد  
كافكا كان يتكلم اللغة التشيكية لغة أصلية وأنه  
تعلم شيئا من اللغة الألمانية لم يكن يتقنه حتى بعد  
أن هاجر إلى براغ واستوطنها . كذلك يهمن أن نذكر  
أنه انتقل إلى براغ وافتتح فيها محلا لبيع الخردوات  
 والملابس وبدأ يحقق أرباحا متزايدة ، فبدأت  
أحلام الصعود الاجتماعي تراوده ، وقرر أن يكون  
ذلك عن طريق الاندماج في الطبقة الألمانية ببراغ ،  
وفي الزواج من بنت ذات غنى وحسب . وهكذا  
بدأت حياة هرمن كافكا تصطبغ ببصغة التحول من  
التشيكية إلى الألمانية ، وببصغة الوصولية والعنف  
في نفخ غبار الماضي الفقير والانطلاق إلى أفق  
أعلى ، كذلك خيم على العلاقات بين هرمن كافكا  
وزوجته جو كرية من الكراهية الكامنة أو من  
الاحساس بالفارق الاجتماعي بينهما .

فرانتس كافكا هو سليل هذه الأسرة التي  
حاولنا أن نرسم بإيجاز صورتها . منذ خرج إلى  
الدنيا وهو يعيش وسط ميراث هذه الأسرة من  
الحيرة : حيرة بين التشيكية وبين الألمانية وحيرة بين

وتصل الى حد الشتائم مثل: يا بهائم ويا كلاب. على حد وصف فرانتس كافكا . أما فى المساء فكان الأب يلعب الورق - الكوتشينة - ويشير حوله جوا من الصخب والشجار والصياح يعتبره من ضرورات اللعب ، ويدخن الغليون ويشير حوله دخانا قاتما ساما ثقيلًا على الصدر ينفر الأولاد . أما الأولاد فكان أمرهم فى يد المربية والطباخة والخادمة . وقد صور حاله مع الطباخة فى خطاب أرسله الى صديقه ميلينه يزينسكا فى الفقرة الأخيرة من عمره ، قال : « كانت طباختنا ، وهى امرأة قصيرة عجفاء نحيفة مديبة الأنف مجوفة الخدين مصفرة البشرة ، ولكن صلبة ذات همة وتأن ، تأخذنى كل يوم الى المدرسة .. وكانت الطباخة عندما نخرج من البيت تقول لى انها ستحكى للمدرس اننى كنت غير مهذب فى البيت والظاهر اننى لم أكن قد تصرف فى البيت تصرف غير المهذب ، بل كنت عنيدا ، بليدا ، حزينا ، غضبان ولكن هذا كان من شأنه على ما يبدو أن يؤدى الى مالا يحمد عقباه . وكنت أعرف الأمر ، ولهذا لم أكن أستهين بالتهديد .. فكان الخوف من التهديد يتمكن منى ، ولقد كانت المدرسة ذاتها بالنسبة لى شيئا مربعا ، فما بال الطباخة الآن تريد أن تزيدها صعوبة ! كنت أتوسل اليها وهى تهز رأسها وكلما أكثر التوسل ، كلما زادت قيمة ذلك الذى كنت أتوسل من أجل الحصول عليه ، وكلما عظم الخطر ، وكنت أقف وأرجو المغفرة ، فتجذبنى ، وتهددنى بانتقام والدى ، وكانت تضحك ، فقد كانت هنا ذات القوة الكاملة ، وكنت أتشبث بأبواب الدكاكين وأركان المباني ، فلم أكن أريد أن أستأنف السير الا بعد أن تكون قد سامحتنى ، فكنت أشدها من ثوبها ( فلم يكن أمرى باليسير

عليها ) ، ولكنها كانت تستمر فى جرى وهى تؤكد لى أنها ستحكى هذا أيضا للمدرس ، ويتأخر الوقت ، وتدق ساعة كنيسة ياكوب الثامنة ، ويأتى الى السمع صوت جرس المدرسة ، وكان تلاميذ آخرون يهرعون ، وكنت أنا أخاف أعظم الخوف من التأخر ، وهكذا كان يتحتم علينا أن نجرى وأنا ما أزال أفكر : « ستحكى له - لا لن تحكى له » وعندما نصل كانت لا تقول شيئا ، لم يحدث أنها قالت للمدرس شيئا ، ولكنها كانت دائما تملك امكانية، بل امكانية تزداد باستمرار (كانت تحتج بأنها لم تقل بالأمس ولكنها ستقول اليوم بكل تأكيد ) ولم تكن قط تتخلى عن تلك الامكانية . - كان فرانتس كافكا كما توضح هذه القصة يعيش أثناء طفولته فى رعب ، لا أمه تحنو عليه ، ولا خادمتها تلين له ، فمن الطبيعى أن تختل نفسيته ، وقد افترضنا أنه ورث عن أقارب أمه شيئا من العصائية، وعلمنا أنه كان ضعيف البنية . - ولم يقتصر تأثير سياسة الأب ومسلكه نحو أولاده على هذا ، بل تجاوزه الى أكثر من هذا بكثير . كان رجلا غليظا غنيفا مع أولاده . فى خطاب فرانتس الى أبيه نقرأ مثلا : « لقد اتصفت فى نظرى بذلك الشئ الغامض الذى يتصف به الطغاة جميعا ، أولئك الذين يررون حقهم بشخصهم لا بالتفكير » أو يقول فى موضع آخر : « انك تستطيع أن تعامل الطفل بما خلقت به ، بالعنف ، بالصخب ، بالغضب ولقد بدا لك هذا فى حالتى مناسبا جدا ، لأنك كنت تريد أن تنشئ منى شابا شجاعا قويا » . وقد كتب فرانتس كافكا الى أخته ، وكان فى ذلك الوقت فى الأربعين من عمره ، خطابا تناول فيه أثر التربية السيئة ووسائلها ، وتحدث عن خبرته مع والديه ووصل فى النهاية الى الخلاصة وهى :

« ان الوالدين يستخدمان وسيلتين للتربية هما وليدتا الأنانية : الطغيان والاسعباد بكل الدرجات، أما الطغيان فقد يبدو شديد الرقة » (لا بد أن تصدقنى فأنا أمك ؟) وأما الاسعباد فقد يبدو شديد الكبرياء « انك ابنى ولهذا فسأجعلك شديد الكبرياء » انك ابنى ولهذا فسأجعل منك منقذى ومخلصى » ولكنهما وسيلتان فظيعتان ، وسيلتان لا تربويتان تصلحان لدك الطفل فى التربة التى خلق منها دكا » وفى يومياته كتب حول عام ١٩١٤ مسودة خطاب الى والد صديقته التى كان يوشك على خطبتها وهى فيليثسه باور ، يقول : « انتى أعيش فى أسرتى بين خيرة وأحب الناس ، غريبا بين غرباء . لم أتكلم مع أمى فى السنوات الماضية الا عشرين كلمة كل يوم فى المتوسط ، ولم أزد فى حديثى مع أبى عن كلمات التحية بحال من الأحوال . أما أخواتى المتزوجات وكذلك أزواجهن فلا أتحدث معهم قط ، اللهم الا لنعضب بعضنا من البعض . والسبب بسيط وهو أنه ليس هناك أقل قليل أقوله لهم » .

كان هذا الجو فى بيت الأسرة من شأنه أن يفسد على فرانتس كافكا حياته كلها . فاذا انتقلنا الى البيئة الثانية التى احتك بها بعد البيت ، وهى المدرسة ، وجدنا أنه لم يخرج منها الا بمزيد من الخوف واليأس والانكار والمرض . فى خطاب فرانتس كافكا الى صديقته ميلينه ذلك الخطاب الذى استشهدنا به من قبل جاءت عبارة : « وكانت المدرسة بالنسبة لى شيئا مربعا » ، وهذه العبارة هى خلاصة خبرة فرانتس كافكا فى المدرسة . أرسل هرمن كافكا ابنه فرانتس وهو فى العاشرة الى المدرسة الثانوية الانسانية الألمانية ، ليقيم الصلة بينه وبين الطبقة الألمانية ، وليفتح له بها السبيل

الى الدخول فى سلك وظائف الحكومة الملكية النمساوية ، فقد اعتادت الحكومة على الاعتماد على هذه المدرسة فى الحصول على حاجتها من الموظفين لم تكن هذه المدرسة تتيح فرصة للتلاميذ كى يتصلوا بالمدرسين ، فقد كانت العلاقة بين التلميذ والمدرس فيها تتلخص فى احترام التلميذ للمدرس وامتناله له ، وكان العمل فيها هو تلقى الدروس وحفظها فى صمت . وكان أهم جزء فى برنامج المدرسة هو اللغتين القديمتين : اللاتينية والاغريقية ، ثم التاريخ القديم . أما اللغة الألمانية فكانت تدرس فى ثلاث ساعات فقط . وأما المواد المتصلة بالحياة الحاضرة فكانت مهمة ، أما التربية والعناية بالشخصية وفهم نفسية التلاميذ فأمر لم تعمل لها المدرسة حسابا ، وكانت هى أهم ما يحتاج اليه انسان مضطرب حيران كفرانتس . ويبدو أن هذه المدرسة كانت ، لاتحسن تقرب مواد الدراسة الى افهام التلاميذ ، فقد خرج كافكا من المدرسة لا يفهم روح الثقافة الكلاسيكية القديمة ، لأن المدرسين كانوا يركزون جهودهم ، كما كتب فى يومياته وسجل فى خطابه ، على قواعد اللغة وغريها . - أما دروس الدين فيقول كافكا عنها انها « كانت لاشئ » ، أو كانت مزاحا ، لا ، بل لم تصل حتى الى درجة المزاح » ويروى أنه كان يقضيها فى التأثؤب ويقول انه كان يحس فيها بملل لم يحسه فيما بعد الا فى دروس الرقص .. ( أنظر أيضا خطابه الى أبيه ) - لم يأخذ فرانتس كافكا ما كان بحاجة اليه ، لا فى المدرسة ، ولا فى البيت ، وكان الشئ الذى يحتاج اليه أشد الاحتياج هو أن يفهمه الكبار ويوجهوه الوجهة التى تتفق مع فرديته . وقد علق على هذا فى مذكراته بقوله : « كانوا ، على قدر ما علمت ، يعملون فى

المدرسة وفي البيت ، بلوغ هدف هو محو السمّة الشخصية في . لم يتبين أحد سمى الشخصية . » .  
كانت نتيجة هذه الخبرات كلها أن فقد فرانتس كافكا الثقة فيما وفيمن حواله ، ولاذ بالصمت والانعزال ، واشتد به الخوف والخجل . وأصبح حساسا مفرط الحساسية لا يحتمل الضوضاء أقل الضوضاء ، ولا يحتمل هواء الأماكن المقفلة ويتصوره كحجرة أويه ، مليئا بالدخان ثقيل على الصدر . وكان من نتيجتها أيضا أن تكونت لديه دفعة عنيفة باطنية تدفعه الى التعبير عن ذات نفسه في خلق فنى ، كانت له القدرة عليه . ولكن هذا الخلق الفنى لم يمكنه من سد الفجوة التى كانت تباعد بين الآخرين وبينه ، بل أدت الى العكس من ذلك تماما .

ولما أتم المدرسة الثانوية الألمانية وحصل على شهادتها عام ١٩٠١ سافر الى هالجولاند جزيرة الاجازات والاستجمام فى شمال ألمانيا - حيث قضى عدة أسابيع . فلما عاد الى براغ بدأ يستعد للالتحاق بالجامعة . كان يريد أن يدرس الفلسفة ولكن هذه الرغبة لم تلق من أيه الا المعارضة الشديدة ، لأنه كان يريد له أن يصبح موظفا فى الحكومة ان أمكن ، وما عسى الفلسفة أن تفيد فى بلوغ هذا الهدف . فانصرف عن الفلسفة وبدأ يدرس الكيمياء . ثم مالبث أن ترك الكيمياء ودراستها والتحق بمعهد القانون الرومانى . ولكن دراسة القانون لم تصادف هوى فى نفسه على الاطلاق فقرر أن يختلف بالاضافة الى محاضرات القانون الى محاضرات فى تاريخ الفن وخاصة التصوير والنحت ، وفى الآداب الألمانية ، وفى الفلسفة وعلم النفس . وظل فرانتس كافكا طوال سنوات الدراسة فى براغ لم يغادرها الا لبضعة أيام قضاها فى ميونيخ

حاضرة بافاريا الشهيرة ، ثم لفترة استجمام قضاها فى مصحة تسوكماتل بين البحيرات والغابات ، فى يولية من عام ١٩٠٥ . وقد كانت رحلة كافكا الى المصحة ضرورة ملحة لأن حالته الصحية عموما وحالته العصبية خصوصا كانت قد تدهورت تدهورا شديدا من وطأة الدرس المتعب السقيم ، ونتيجة لمقدمات اطلعنا عليها فى المراحل السابقة لحياته . ولم تكن علاقات فرانتس كافكا بزملائه فى الجامعة خيرا من علاقاته بزملائه تلاميذ المدرسة الثانوية ، فقد ظل دائما عكوبا على نفسه ، عزوفا عن الناس الا قليلا . والأرجح أن تشاؤمه ازداد ، وأن حيرته اشتدت خاصة وأنه كان قد بدأ يعالج الانتاج الأدبى ويخشى أن ينتهى الى وظيفة فيما بعد ، تحول بينه وبين الأدب . والمحقق أنه بدأ يصل الى أعماق أبعد فى تحليله نفسه ، وبدأ يحاول تحديد الحياة ، وتحديد حياته ، ويرى أنها عبارة عن « صعود وهبوط طبيعى ثقيل له وضوح لا يقل عن وضوح العدم » .

وفى ١٨ يولية عام ١٩٠٦ حصل فرانتس كافكا على الدكتوراه فى القانون بدرجة مقبول ، وكان مسرورا بهذا التقدير سرورا شديدا ، فهو قد بذل الجهد الشديد فى الدرس ما فى ذلك شك ، ولكنه لم يكن يريد أن يبلغ فيه غير النجاح ، خوفا من القشل وخوفا من أهله . وليس الحديث هنا عن الخوف حديث مبالغة ، بل حديث حقيقة ، فقد كان الخوف هو الشئ الذى عمل له فرانتس كافكا فى حياته ألف حساب ، وأعماله تنطق به فى كل موضع . وأراد كافكا أن يتفرغ للأدب ، ولكن المحيطين به من أهله خاصة كانوا ينكرون عليه هذا انكارا . وكافكا يحكى فى يومياته غلظة أهله معه فى هذا السبيل ولنقرأ هذا المثل : « يا للفظاعة

التي حاقت بى عندما بدأت أعالج الأدب.. يالبرودة التي كانت تلاحقنى من جراء ما كنت أكتب .. كنت ذات مرة أنوى كتابة رواية تدور حول أخوين يتصارعان ، ذهب أحدهما الى أمريكا وبقي الآخر فى سجن بأوروبا ، واستغرقت فى الكتابة عصر يوم أحد كنا فيه فى زيارة الجد .. وكان ما كتبته يدور حول السجن .. كانت سطور قليلة تصف ممر السجن وتصف خاصة برودته وسكونه ، وتس بكملة مواساة الأخ الذى بقى فى أوروبا ، فقد كان هو الأخ الطيب . ولعلنى كنت أحس احساسا عابرا بتفاهة الوصف الذى وصفته ولكنى لم أكن قبل عصر ذلك اليوم أعمل حسابا لمثل هذا الاحساس كنت عندما أجلس بين أهلى الذين كنت آلفهم ( وقد كان خوفى شديدا ، وكانوا هم نتيجة لهذا يمنحوننى نصف السعادة بجو الألفة الذى يضمهم ) ، أجلس الى المائدة المستديرة ، فى حجرة معروفة ، لا أستطيع أن أنسى أننى صغير السن واننى وسط هذا الهدوء مختار لشيء عظيم . وتناول أحد أخوالى - وكان يجب النهكم - منى الورقة التي كنت أمسكها برفق ، وتطلع اليها قليلا ، ثم ردها الى دون أن يضحك ، وقال للآخرين الذين كانوا يتابعونه ببصرهم « الكلام المعتاد » ، ولم يقل لى أنا شيئا . وبقيت طبعاً جالسا ، وانحنيت كما كنت أفعل ، على ورقتى التي قال انها لاتفيد فى شيء ، ولكنى كنت قد طردت من الجماعة فعلاً بضربة من الخال ، وتكرر حكم الخال فى نفسى بسعنى يوشك أن يكون فعلياً ، وأبصرت حتى فى وسط الشعور العائلى بالمكان البارد فى عالمنا ذلك المكان الذى ينبغى على أن أدفئه بالنار التي أبحث عنها .

وكان الأب قبل الآخرين جيعاً لا يعترف بنشاط ابنه الأدبى . وقد صور فراتس كافكا مسلك

أبيه معه فى « خطابه الى أبيه » قائلاً : « لقد كنت دائماً ومن غير تدبر تكره كل لون من ألوان نشاطى وكنت بخاصة تكره طريقتى فى الاهتمام بالأشياء . » وقد فصل ذلك على النحو التالى : « وقد أصبت بكرهك بطريقة أنجع كتابتى وكل ما كان يتصل لها ، دون أن تعرف ذلك . وكان كرهك فى هذه الحالة ، على قبيل الاستثناء ، شيئاً يلقي ترحيبى . كان زهوى وطموحى بطبيعة الحال يعانين من تحيتك لكتبتى ، تلك التحية التي اشتهرت بيننا : « ضعه على المنضدة بجانب سريرى » ( وكنت فى الغالب تلعب الورق عندما يأتى كتاب من مؤلفاتى ) ولكنى كنت فى قرارة نفسى مرتاحاً ، لا نتيجة لشر جائش فحسب ، ولا نتيجة لتأكيد جديد منك لتصورى علاقتنا فحسب ، ولكن لأن هذه العبارة كانت أصلاً وقبل كل شيء آخر ترن كقولك : « أنت الآن حر » وكان ذلك بطبيعة الحال خداع ، فلم أكن حراً ، أو على أحسن الفروض لم أكن قد أصبحت حراً بعد . وان كتابتى لتدور حولك ، فأنا أشكو فيها مما لم أستطع أن أشكوه وأنا فى حضنك . انها تتعمد أن تكون وداعاً مطولاً منك ، وداعاً آخذه منك عنوة ، ويسير فى الاتجاه الذى أحده أنا له . »

لم يكن من الممكن اذن أن يعكف فراتس كافكا على الكتابة التي بدأ يعالجها بجد منذ عام ١٨٩٧ - ١٨٩٨ . وكان أن بدأ فى أكتوبر من عام ١٩٠٦ عاماً تدريباً ممارسة القانون والمحاماة ، وكان هذا التدريب فرضاً يفرضه القانون . فلما انتهى ، دخل فى أكتوبر من عام ١٩٠٧ فى شركة « التأمينات العامة » موظفاً مؤقتاً ، وبدأ فى عام ١٩٠٨ فى شهر يوليو العمل فى « مؤسسة التأمين عنى العمال ضد الحوادث » ، وظل يعمل بها حتى أحيل الى

المعاش في يوليو عام ١٩٢٢. وقد ترقى في الوظائف فكان في عام ١٩١٣ مثلاً نائب سكرتير المؤسسة ، وفي عام ١٩٢٠ كان يشغل منصب سكرتير المؤسسة وفي عام ١٩٢٢ كان قد وصل الى وظيفة سكرتير أول المؤسسة . وكان كافكا محبوباً من زملائه ، وهناك من الروايات ما يوحى بأنه كان يساعد المحتاجين الى المساعدة ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولكن كافكا لم يكن راضياً بهذا العمل لأنه كان يضطره الى أن يقطع من وقت راحته الكثير للكتابة ، حتى أهلكه التعب وأتى على صحته في نهاية المطاف . في عام ١٩٠٧ كتب يقول : « لقد اضطرت حياتي الآن اضطراباً شديداً » ، ويتحدث في الخطاب نفسه عن خوف عام من الكتابة، من ذلك العمل الفظيع الذي يعتبره حرمانه منه بمثابة تعاسة كاملة . « وفكر كافكا بالفعل في الهرب من براغ - المدينة اللعينة ، على حد قوله في ساعة من ساعات غضبه - والبحث عن مكان هادئ يتيح له الاستمرار في عمله الأدبي وصورت له أحلامه هذا المكان في صورة كرسى وثير أمامه نافذة يطل منها فيرى حقول قصب السكر أو مقابر المسلمين ، ولكنه ، على حبه للأماكن الغامضة التي ربما سرت فيها العفاريت ، كان يخاف منها ، ولا يجد من العزم ما يكفيهِ لانطلاقه يتحرر بها .

ويعتبر عام ١٩١٢ عام البدء في الانتاج الضخم والانتاج الضخم عبارة نسبية بحتة ، نعني بها أن كافكا بدأ في كتابة مجموعة الروايات الكبيرة، تلك الروايات التي لم يتمها . بل كان يتركها ناقصة أو مبعثرة ، وكان يريد لما لم ينشره منها أن يحرق وأوصى بذلك خالصه ، فلم ينفذوا انوصية الا قليلاً ، وحفظوا بذلك تراثه العظيم لنا ، بدأ يكتب

رواية « الضائع » التي طبعت بعد وفاته بسنوات وقرضت باسم «أمريكا» ، وكتب قصة « الحكم » وفكر في قصة « القضية » . ولكنه كان كلما تقدم في الكتابة كلما ساءت حالته النفسية والجسمانية . يقول في خطاب له الى بعض أصدقائه : « ان الكتابة تبقيني حياً ، ولكن أليس من الأصوب أن أقول ان الكتابة تبقيني حياً هذا الضرب من الحياة؟ ولست أعني بذلك بطبيعة الحال أن حياتي تكون أحسن عندما أكف عن الكتابة . بل انني لو كفت عن الكتابة لساءت حياتي ولأصبحت غير محتملة ولا انتهت حتما الى الجنون . » ولقد حاول كافكا أن يبعد عن طريق الجنون وأن يعتدل ، خاصة عندما تعرف على فيليتيه باور في عام ١٩١٢ (١٣ أغسطس) ، وفكر في الزواج والحياة حياة طبيعية . ولكن كافكا ، وهذه ناحية أخرى من النواحي الغريبة في حياته ، لم يكن يتصور النساء الا كشخصيات شاذة ، كعاهرات مثلاً ، ويرجع هذا التصوير بطبيعة الحال الى خبرات سيئة له مع النساء ، خاصة في حانات الليل التي كانت براغ تغص بها في ذلك الوقت . وهكذا انتهت علاقته بفيليتيه باور ، رغم الحب واللقاء والخطابات الكثيرة ، بل والخطبة في ١٩١٤ الى الهجر . ولكن العلاقة التي بدأت بين كافكا وفيليتيه لم تنته تماماً بنفسخ الخطبة ، فقد تلاقيا بعد ذلك في عام ١٩١٥ ثم في عام ١٩١٦ ثم في عام ١٩١٧ حيث تكررت محاولة الاستقرار ، وأعلن الاثنان خطبتهما للمرة الثانية في سبتمبر من عام ١٩١٧ . وكان كافكا في هذه الأثناء قد أنشأ علاقة أخرى مع صديقة لفيليتيه هي جريته بلوخ ، وقد أثمرت هذه العلاقة ابناً مات بعد سبع سنين باحت بلوخ بهذا السر لأول مرة في عام ١٩٤٠ في



خطاب خاص الى بعض الأصدقاء ، جاء فيه أيضا ان كافكا لم يقبل الاعتراف بأبوته للولد ، في الغالب خوفا من فيليته ، وفي عام ١٩١٧ ، وعلى وجه التحديد في أول أغسطس منه ، بصق كافكا دما ، وتأكدت اصابته بالسل الرئوى . يقول : « اذا مت في المستقبل القريب أو أصبت بالعجز التام .. فسيكون لى أن أقول اننى مزقت نفسى بنفسى . الدنيا . وأنا اثنان مزقا كلاهما جسمى في صراع لم يكن من الممكن التغلب عليه » .

وهكذا شاء القدر أن يأتى بالسل الرئوى فيحول بينه وبين الزواج من فيليته ، بعد حب وفراق واتفاق وخطبة وانفصال ولقاء ، وخطبة مجددة . على أن يوميات كافكا ورسائله توحى بأنه لم يفسخ الخطبة الثانية بسبب المرض وحده ، وإنما بسبب حالته العامة المضطربة الحائرة ، ورغبة منه في العكوف على الانتاج الأدبى دون سواه . في ذلك الوقت ترك كافكا براج للاستشفاء في « تسيراو » حيث كانت أخته قد اتخذت مزرعة وقامت عليها بنفسها . ولكن حالته لم تتحسن كثيرا . فعاد الى براغ ، وبقي الصيف هناك ثم انتقل الى قرية شمالها هى قرية « شيليزن » أقام في بنسيون بها . وهناك تعرف بفتاة تشيكية ابنة صانع أحذية اسمها « يوليا فوريتسك » ، وقرر الزواج بها وأعلن الخطبة الثالثة ( عام ١٩١٩ ) ، ولكن هذه الخطبة كانت متعجلة ، و انتهت الى الفسخ . وفي ديسمبر عام ١٩١٩ عاد كافكا الى براغ وبقي حتى شهر أبريل ١٩٢٠ ، حيث سافر الى ميران للاستشفاء ومن هناك تبادل الرسائل مع امرأة تشيكية شابة هى ميلينا يزينسكا ، كان قد تعرف بها على عجل في براغ ، لأنها كانت تريد ترجمة شيء

من أعماله الى اللغة التشيكية ، وكانت ميلينا تعيش فى فيينا ، شبه مطلقة . ورجت ميلينا فزاتس كافكا أن يزورها فى فيينا فى طريق عودته من ميان ، ففعل . ونشأ بين الاثنين حب عارم ، ألهمته ميلينا بروحها المتأججة ، وأرادت أن تبقى على الدوام بجواره ، فقد أحست أنها هى الوحيدة التى تستطيع أن تفهمه ، وتدخل الاستقرار الى حياته ، ولكن فزاتس كافكا رفض وعاد وحده الى براغ . وكتب اليها فى أواخر عام ١٩٢٠ يرجوها أن يكفى عن التراسل . وبعد جهد جديد فى الكتابة ، سافر كافكا فى ديسمبر عام ١٩٢٠ الى ماتليارى ودخل مصحة المصابين بالسل ، حيث صادق طبيبا شابا محبا للأدب اسمه روبرت كلوبشتوك ، ظل مخلصا له حتى مات فكان بجواره . وقطع كافكا اقامته فى المصحة فى سبتمبر ١٩٢١ وعاد الى براغ حيث استأنف الكتابة بجد فأتى على سبيل المثال رواية « القصر » فى الفترة بين يناير وسبتمبر عام ١٩٢٢ وتخللت هذه الفترة اقامات فى بلانا عند أخته أوتلا ، وفى شيندلوه ، ورحلات الى بحر البلطيق والمنطقة المجاورة ، وفى عام ١٩٢٣ تعرف بصديقه الأخيرة دورا ديامانت ، وسافر من أجلها الى برلين - المدينة الوحيدة التى يمكنه أن يعيش فيها ، على حد قوله - هاربا من براغ ، واتخذ مع دورا مسكنا متواضعا عاش معها فيه فترة سعيدة خصبة وفى مارس عام ١٩٢٤ ساءت صحته بدرجة شديدة ، فقد زحف السل الى الحنجرة وأصبحت الحالة ميئوسا منها ، فحضر بعض أقاربه وأصدقائه وحملوه الى براغ . وفى أول ابريل نقل الى مصحة بفينيا وبقي بجواره الطبيب الشاب روبرت كلوبشتوك والصديقة الأخيرة دورا ديامانت ، الى أن فاضت روحه فى الثالث من يونيه ١٩٢٤ وعمره

أقل من ٤١ سنة بشهر واحد . ودفن فى براغ .  
ثالثا : أعماله :

أقل أعمال فرانتس كافكا هو مآظفر فى حياهه ، وأهمها مآظفر بعد وفاته ، وأغلبها أعمال أوصى بحرقها ، لأنه لم يكن يجب أن يقدم الى الجمهور أعمالا ناقصة ، أو مشوهة . وقد سبق أن أشرنا الى الطبعة الموجودة بين أيدينا حاليا طبعة يرتاب فيها العلماء ، وكل مانرجوه أن تتاح لبعض المحققين الموضوعين المدققين فرصة اخراج طبعة تطابق تماما المخطوطات الأصلية .

الأعمال المبكرة :

- ظهرت فى مجلة « هيريون » فى عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ وهى :
- الأشجار
- الثياب
- الطرد
- التاجر
- تطلع تائه
- الطريق الى البيت
- العابرون
- المسافر
- أجزاء من « وصف معركة »

الأعمال التالية التى ظهرت فى حياة كافكا :

- تأمل ١٩١٣ ( الناشر روفولت فى لايتسج )
- العطشجى ١٩١٣ ( مقتطف . الناشر كورت ثولف فى لايتسج )
- التحور ١٩١٥ ( الناشر كورت ثولف ، لايتسج )

الحكم ، قصة ١٩١٦ ( الناشر كورت ثولف ، لايتسج )

فى معسكر العقاب ١٩١٩ ( الناشر كورت ثولف )

طبيب ريفى . مجموعة من القصص القصيرة ١٩١٩ ( الناشر كورت ثولف ، ميونيخ ولايتسج )  
فنان جائع ، أربع قصص ، ١٩٢٤ ( دى شميده برلين )

الأعمال التى ظهرت بعد وفاته قبل الحرب العالمية الثانية :

- القضية ، برلين ١٩٢٥ ( رواية )
- القصر ، ميونيخ ١٩٢٦ ( رواية )
- أمريكا ، ميونيخ ١٩٢٧ ( رواية )
- عند بناء سور الصين . قصص وكتابات منشورة من مخلفات كافكا برلين ١٩٣١ .
- أمام القانون برلين ١٩٣٤
- مجموعة أعمال كافكا فى ستة أجزاء ظهرت فى برلين ثم براغ بين عام ١٩٣٥ و ١٩٣٧ وهى تضم الأعمال السابقة بالاضافة الى انيوميات والخطابات .

الطبعة الحالية لأعمال فرانتس كافكا :

ظهرت فى فرنكفورت ( الناشر فيشر ) بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٧ وهى :

\* القضية

\* القصر

\* يوميات ١٩١٠ — ١٩٢٣

\* الرسائل الى ميلينا

\* القصص

\* أمريكا

\* استعداد عرس في الريف وأعمال ثرية أخرى  
من المخلفات

\* وصف معركة . قصص ، مخططات ، منفرقات من  
المخلفات

\* الرسائل ١٩٠٢ - ١٩٢٤

\* رسائل فرانتس كافكا الى خطيبته فيليتيه  
باور ( ٧٠٠ صفحة ، بعناية أريش هيلر ) ظهر  
هذا العام ١٩٦٧

رابعا : شخصية كافكا وأفكاره :

كان فرانتس كافكا منذ الصغر ضعيف البنية،  
معتل الصحة ، ومازالت العلة - السبل الرئوى  
- تشتد به حتى أتت على حياته ولم يتجاوز الأربعين  
الا بشهور . وكان أبرز شيء في شخصيته هو  
الخوف الشديد ، وأعماله الأدبية وكذلك رسائله  
ويومياته مملوءة بكلمة الخوف ومرادفاتها . في  
يومياته كتب عام ١٩١٢ : « هذا الخوف الأساسى  
الذى يلزمنى دائما أبدا » وفي رسالة له الى ميلينا كتب  
عن قصة «الحكم» يقول : « في هذه القصة كل  
جملة ، كل كلمة ، كل نعمة - ان أمكن هذا  
التعبير - مرتبطة بالخوف » . أما خطابه الى أبيه  
ذلك الخطاب الهام الذى أشرنا اليه واستشهدنا  
بعبارات منه فى أكثر من موضع فهو يبدأ بحديث  
عن الخوف . يقول موجها الكلام الى أبيه : « لقد  
سألتنى منذ قليل مرة لماذا أدعى اننى أخاف منك .  
ولم أستطع كالمعتاد أن أجيب عليك بشيء ، لسبب

بعضه هو خوفى منك ، وبعضه الآخر هو أن تعليل  
هذا الخوف ترتبط به تفاصيل كثيرة لا أستطيع  
أن أجمعها على نحو ما فى حديث طابر ، وأنا اذا  
كنت أحاول أن أجيب عليك كناية ، فالاجابة ستكون  
ناقصة جدا ، لأنتى حتى وأنا أكتب أحس بالخوف  
وبنتائج تعوقنى عن الاجابة .. » كل شيء أمام  
كافكا غارق فى الخوف ، خوف من الناس ، من  
الأشياء ، من الوجود ، من العدم . وتقوم على  
احساس الخوف عند كافكا الفكرة الأساسية  
التي تحمل حياته وأعماله كلها : فكرة الحكم .  
ان ما يحدث للانسان أو ما يتعرض له الانسان  
من الأشياء والناس هو عملية حكم ، انها وانهم  
يحكمون عليه باستمرار ، وهذا الحكم ، لا يفترض  
فيه كافكا الايجابية ، بل السلبية - وهذا شيء  
طبيعى لأنه خواف - انه حكم ينصب على الانسان  
ويسير حياته حتى يصل بها الى الخراب والفناء  
ومن العناصر الهامة التى كان كافكا يخشى منها  
العفاريث والأشباح وما اليها من كائنات سحرية  
غامضة ، وهذا العنصر له صدها فى أعماله ، ويظهر  
تارة مباشرة ، وتارة فى صورة وسط بين الواقع ،  
واللاواقع ، فيما يشبه الأحلام - ثم تبرز فى  
شخصية كافكا سمة أخرى هى الحساسية المفرطة ،  
انه لا يحتمل الضوضاء مهما قلت ، ولذلك نجده  
يكثُر من الانتقال من بيت الى آخر التماسا لمزيد  
من الهدوء . وتتخذ الحساسية مرتبطة بالخوف  
صورة الخوف المبالغ فيه من الذنب ، وهذا الذنب  
ليس دينيا ، ليس من النوع الذى يعرفه المتدينون  
والذى يتمثل فى غضب الله ، انما هو احساس بأنه  
ما كان ينبغى فعل هذا أو ذاك من الأمور ، وهو  
احساس قوامه الألم خاصة فى خطابه الى أبيه  
يقول : « لقد فقدت أبامك الثقة بالنفس ، وتكون

لدى بدلا منها شعور بالذنب لحدود له». وكان هذا الشعور بالذنب يظهر فى صورة خجل شديد حتى ان كافكا قال : ان خجله من فرط ضخامته ، سيظل باقيا حتى بعد أن يموت هو . - وكان كافكا يحس بحاجة الى الناس ، ولكن تلك الحاجة لم تكن تصل الى نتيجة . يقول كافكا : «هذه الحاجة الى الناس ، التى تختلج فى نفسى وتتحول الى خوف عندما تشبع ، لاتتخذ هيئة صحيحة الا فى الاجازات » ، فقد كان كافكا ، كما كتب فى يومياته ، يعيش فى أرض على الحدود بين العزلة والاندماج ، ولا يبرحها الا فيما ندر ، ويجد فيها جمالا لايزيد عليه جمال . وقد جرب كافكا الحياة من الناس فلم يفلح .. جرب الحياة مع أهله فعاش بينهم غريبا بين غرباء ، وقد سبق أن أوردنا النص ، وجرب الحياة مع فيليثسه باور عشرة أيام فى عام ١٩١٦ فصرح فى يومياته من « محنة المعيشة مع آخر » ومن «عدم استطاعته احتمال المعيشة مع كائن من كان» ولم يتغير كافكا الا فى الأسابيع التى سبقت موته عندما عاش فترة مع دوراديامنت . - وعلى الرغم من أن فرانتس كافكا عاش فى مسقط رأسه لم يبرحه الا فى رحلات قصيرة ، فانه كان يحلم بالانطلاق الى بعيد وكان كثير السخط أحيانا على براغ ، التى قال عنها غير مرة « المدينة اللعينة » ، وقد فكر بعد حصوله على الدكتوراه فى الهجرة الى جنوب أمريكا ، والتحق بمعهد اسمه «أكاديمية التصدير» ، وتعلم اللغة الأسبانية . ولكن المشروع لم يتحقق . ولكنه ظل يتمنى أن يتمكن ذات مرة من الجلوس على كرسى فى أبعد البلاد . - لم يكن خوف كافكا يحول بينه وبين النشاط . ونحن بقدر مايمكننا أن نقول عن كافكا انه كان كثير الخوف ، بقدر مايمكننا أن نقول انه كان كثير

النشاط ، ونشاط كافكا يظهر فى صورة الانتاج الأدبى الضخم الذى أنتجه فى سنوات قليلة لم يتفرغ فيها تماما ، ويظهر فى صورة التأمل والتهويم ، ولا بد أن فرانتس كافكا ، وقد أدرك منذ الصغر أنه لا يستطيع أن يندمج فى الآخرين ، انصرف الى ذاته ، وأغرق فى التأمل والأحلام ، وقد أدى هذا الى غلبة الذاتية على انتاجه كله ، والى التفاف ذلك الانتاج كله بغلالة رقيقة منسوجة من خيوط الأحلام .

على أن انتاج كافكا الأدبى تأثر الى جانب هذه الخبرات الذاتية بمؤثرات خارجية من كتب ألفها الكبار والصغار ومن محاضرات ألقاها الأساتذة وغير الأساتذة ومن احتكاكات بهذا وذاك من الناس ، وهذه المؤثرات الخارجية يكشف عنها كافكا فى مواضع كثيرة من رسائله ومن يومياته . قرأ كافكا فى فلسفة شوبنهاور وفى فلسفة نيتشة ( وكان مشتركا فى مجلة « كونستفارت » التى كان نيتشة من مؤسسيها ) ، وقرأ باهتمام كبير يوميات هيل وأميل ويرون وجريلبارتسر وأحاديث اكرمان مع جوته ، وخطابات جوته وخطابات جرابه والنهم عددا من سير الأدباء والفلاسفة وخاصة عن شوبنهاور ودوستوفيسكى . كذلك اشتغل بمؤلفات هاينريش فون كلايست وجوستاف فلوير وأعجب بهما اعجابا يقرب من التقديس . - كذلك اختلف بانتظام الى محاضرات كانت تلقى فى «دار فانتا» ببراغ مساء ، وكانت السيدة برتا فانتا وهى زوجة أحد الصيادلة ، بدافع من حب الثقافة تدعو اليها . وكان من بين من دعتهم من العلماء كوفالفسكى وفرانك وايرنفيلس والبرت اينشتاين . وهكذا تعرف كافكا على نظريات أساسية فى ثقافة العصر وخاصة نظرية النسبية ونظريات التحليل النفسى .

وكانت أسرة فاتتا أسرة عجيبة ، فقد كان بعض أفرادها من المسلمين والبعض الآخر لادينيين أو بوذيين أو غير ذلك .

أما أهم محاضرات تأثر بها فرانتس كافكا فكانت محاضرات تلاميذ الأستاذ فرانتس برتنانو ، الذين كانوا يحاضرون فى جامعة براغ ، وهم أنتون مارتى وأوسكار كراوس وألفريد كاستيل . وقد استمع كافكا بكل تأكيد الى محاضرات أنتون مارتى فى العام الأول له بالجامعة . وكانت تدور حول فلسفة برتنانو . وكان برتنانو يقسم الظواهر النفسية الى مجموعات ثلاث : تصورات - أحكام - انفعالات .

والأحكام فى نظرية برتنانو هى التى ينبى عليها بالدرجة الأولى المسلك الخلقى السوى للانسان ، لأن التصورات والانفعالات لا يمكن تبريرها تبريرا كافيا ، بعكس الأحكام التى لا تكون أحكاما الا اذا كان لها ما يبررها ، عرفناه أم لم نعرفه . وكانت نظرية برتنانو ترى أن أساس تكوين الأحكام على نحو رفيع هو القدرة على التحليل الذاتى . - أخذ فرانتس كافكا عن هذه النظرية تقسيماتها هذه ، وأخذ عنها أهمية الحكم وأهمية التحليل الذاتى ، حتى أصبح لا يرى الناس الا ويتصور هذا يحكم على ذاك ، ولا يرى الناس الا ويتصورهم يحكمون عليه أحكاما دائمة لا تنقطع ، واتخذت « وصفة » التحليل الذاتى ، أهمية كبيرة لديه ، وكيف لا وقد عرفنا من غير هذا وذاك عكوبا على نفسه .

ونحن لانتقد أن فرانتس كافكا كان قد بلغ مرحلة تكوين فلسفة خاصة فى شكل مذهب متكامل ، كذلك نحن لانميل الى الأخذ بمقترحات كثيرة يقترحها بعض النقاد فى تفسير الخلفية

الفلسفية لأعمال كافكا ، ونرى أن الأصوب أن نتقيد ما أمكن بكتابات كافكا ذاتها وأن نستخلص منها صورة أفكاره . فى يوميات فرانتس كافكا بتاريخ ٤ ديسمبر نقرأ مثالا : « المتطلع الى الأمور من الخارج يجد من الفظاعة أن يموت الانسان أو حتى يقتل نفسه وقد اكتمل نموه ، وان ظل شابا ، ان هذا شئ يحدث فى وسط اضطراب تام قد يكتسب شيئا من المعنى فى وسط مراحل تالية من التطور ، شئ يعتبر انصرافا بلا أمل أو انصرافا بأمل واحد ، هو أن يعتبر هذا الظهور على مسرح الحياة كان لم يكن شيئا فى وسط الحساب العظيم . اننى أوشك أن أكون فى مثل هذه الحال الآن . وان الموت لا يمكن أن يعنى سوى تسليم عدم الى عدم ، وهذا يستحيل على الاحساس ، فكيف يمكن أن يسلم الانسان نفسه كعدم له احساس الى العدم ، أو الى عدم ليس عدما فارغا فحسب ، بل عدما فوارا ، تتمثل عدميته فى أنه من غير الممكن على الانسان أن يفهمه . » يبدو من هذا النص أن فرانتس كافكا كان يؤمن بلون من ألوان العدمية التى سيطرت على أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، ومن الممكن أن يكون كافكا قد امتص من أفكار نيتشه فكرة اعتبار الفن والابداع الفنى بمثابة وسيلة للتغلب على العدم ( ولا نظن أن كافكا اتبع نيتشه فى كثير من أفكاره ونعنى خاصة فكرة انسان المستقبل ) وهناك فى يوميات كافكا عبارة عن الفن تحمل شيئا من هذا المعنى النيتشى : « الفن يحوم حول الحقيقة ، ولكنه يصمم على ألا يحترق . وقدرة الفن تتمثل فى ايجاد مكان وسط الفراغ المظلم ، يمكن أن يستقبل فيه شعاع من الضوء استقبالا قويا ، دون أن يكون قد سبق التعرف عليه . »

وكافكا يحدثنا فى يومياته ورسائله خاصة ، عن عالمين ، عالم فكرى ، وعالم حسى ، ويرى أن العالم الفكرى هو الحقيقة . وما أكثر ما تردد كلمة الخداع فى وصف كافكا لما خرج عن حدود العالم الفكرى فى يوم ما من عام ١٩١٧ أو ١٩١٨ كتب فى يومياته : « هل يمكنك أن تعرف شيئا آخر غير الخداع ؟ وإذا حدث ذات مرة أن تحطم الخداع . فلا ينبغى عليك أن تنظر والا تحولت الى عمود من الملح » . وفى الفترة نفسها تقريبا كتب : « كل شيء خداع » وفى الفترة نفسها يقول : « وهناك موضوعات لا يمكن أن ينكرها الانسان ويتجاهلها ، اذا لم تكن قد خلصنا منها بالطبيعة . ولا يمكن أن تستخدم اللغة فى الأشياء الخارجة عن حدود العالم الحسى الا على سبيل الإشارة ، ولا يمكن استخدامها بحال من الأحوال ولا حتى على وجه التقريب استخداما يقوم على المقارنة ، نظرا لأن اللغة طبقا للعالم الحسى لاتصل الا بالملك وبما يتعلق به من علاقات » .

وتنتيجة هذه الاعتبارات تكون المشكلة هى مشكلة ايجاد تكنيك مناسب للتعبير طبقا لهذه المقدمات ، وايجاد وسيلة ما لتحديد قيمة هذا التعبير الفنى وجدواه . أما التكنيك الذى ابتكره كافكا فهو يقوم على بعدين ، رسم صورة فى مجموعها من نوع الحلم والتخريف وهذا هو البعد الأول ، أما البعد الثانى فيتمثل فى ملء هذه الصورة العامة الكبيرة الشاملة بتفصيلات من الخبرات . ففراكتس كافكا فى الواقع يؤمن بأن للفن هدفا أو أهدافا ولا يؤمن بالفن العاثر نجده فى خطابه الى أيه يبين مثلا انه انما كتب ليحرر مالم يستطع النطق به فى كلام من الحديث المؤلف . انه يكتب كتابة من يؤمن بضرورة تبصير

الناس بدعائم حياة صالحة ، تبصير الناس بحدود الخداع . أول شيء يريد أن يبصر الناس به هو أن حياتهم تقوم على الأحكام المتبادلة ، وكل أعماله تهدف الى تصوير حالة الانسان اذا اختلفت هذه الأحكام . وأساس هذه الأحكام هو العدالة . وقد كتب كافكا فى يومياته فى وقت ما بين عام ١٩١٧ و ١٩١٩ نصا رائعا : « ينبغى علينا نحن أيضا أن نتألم الآلام التى تحيط بنا كلها . لقد تألم المسيح من أجل الانسانية ، ولكن ينبغى على الانسانية أن تتألم من أجل المسيح . ليس لنا جميعا جسم واحد ، ولكن لنا جميعا نمو واحد ، وهذا النمو يقودنا عبر الآلام كلها بهذه الصورة أو تلك . فكما ينمو الطفل منتقلا من مرحلة الى مرحلة حتى يصبح هرما ويبلغ الموت ( وكل مرحلة من هذه المراحل تلوح للمرحلة السابقة عليها ، أما فى الرغبة أو الرهبة ، شيئا لا يمكن بلوغه ) ، كذلك تتطور نحن أيضا ( فى ارتباط بالانسانية لا يقل عمقا عن ارتباطنا بذاتنا ) مجتازين كل آلام هذه الدنيا . وليس للعدالة هنا مكان ، كذلك لا مكان للخوف من الآلام ولا مكان لتأويل الألم على أنه من قبيل الكسب » .

ومن الممكن أن يكون مفهوم العدالة قد تأكد فى فكر كافكا من خلال اشتغاله بالحركة الاشتراكية فى براغ . وقد بدأ كافكا يتحول الى الاشتراكية وهو فى السادسة عشرة من عمره وكان فى ذلك الوقت يتصور الاشتراكية على أنها الجملة العادلة التى لا يتألم فيها الانسان ، وما زالت الاشتراكية تضرب جذورها فى نفسه حتى أنشأ وثيقة مهمة أو برنامجا ، باسم عمال يعملون ولا يملكون ، وصل فيها الى تصور واضح على طريقته للاشتراكية . وكان فراكتس كافكا بكل تأكيد

نلخص المهارة الفنية لكافكا فى انها مهارة رسم الصورة . ولقد قال كافكا عن نفسه : « أنا انسان ذو عين » ، يريد أن يقول انه يمتاز بقدرة على رؤية الصور . ووصف عمله فى رواية « الضائع » ( المعروفة الآن باسم «أمريكا» ) هكذا : « أنا لا أرسم أشخاصا . أنا أحكى قصة . وهى صور ، ولاشئ غير صور » . كافكا يلتقط من الحياة صورا ، أو هو يحول خبراته الى صور تكون فى مجموعها العمل الفنى .

وهذا المزج بين عناصر الواقع واطار الأحلام يخلق السمة الكوميدية التى تتصف بها أعمال كافكا والتى تذكرنا بأفلام شارلى شابلن . وكافكا يلتقط من اطار الأحلام اشعاعات يدخلها فيما بداخل الاطار ويربطها بنوع من المنطق تظن ان أقرب وصف له من الصحة هو وصفه بأنه منطق الأحلام . فهو منطق فى حد ذاته ، ولكنه بالنسبة لتقديرنا العادى لا منطق . وانك فى قراءتك لأعمال كافكا تضحك ولكن ضحكك لا يخفى عنك جد الكتاب الذى تقرأه ، انه ضحك كالبكى .

خامسا : رواية القضية :

تدور أحداث هذه الرواية حول شاب فى الثلاثين من عمره اسمه يوزف ك - ولا شك أن حرف الكاف يرمز الى اسم كافكا ، وقد سمي كافكا بطل روايته الهامة الثانية « القصر » ك - كذلك ، أما بطل رواية « الضائع » أو «أمريكا» فاسمه كارل ، وهو اسم يبدأ أيضا بحرف الكاف - يعمل فى بنك كبير ، يشغل فيه منصب الوكيل . وتبدأ الرواية بجملة مهمة جدا هى : « لا بد أن أحدا كاد ليوزف ك - لأنه اعتقل ذات صباح دون أن يكون قد اقترف

يشارك فى اجتماعات نادى براغ الاشتراكى المسمى « نادى الشباب » وانه كان يحمل القرنفلة الحمراء ، رمز الاشتراكية . وكان هذا النادى يجمع طوائف من الشباب تقرم بنشر الأفكار الاشتراكية ، وينظم المحاضرات العامة والمظاهرات لهذا الهدف . ولعل هذا الماضى الاشتراكى الذى لم تظهر حدوده الا فى السنوات الأخيرة هو الذى دفع الى اهتمام دول الكتلة الشرقية حاليا بكافكا ، فانعقد فى قصر ليليس قرب ملنيك بيتشيكوسلوفاكيا أول مؤتمر لكافكا ، فى صيف عام ١٩٦٣ . وفى هذا المؤتمر قال الأستاذ رومان كارست ( وارسو ) : « لقد عاش كافكا من أجلنا نحن أيضا » ، وقال الأستاذ ارنست فيشر ( فيينا ) : « أعيدوا أعمال كافكا من منفاها » .

كان كافكا يرى أن الأدب لا بد أن يوقظ الناس فى خطاب له الى صديق (١٩٠٤) نجده يقول : « أعتقد أنه لا ينبغي أن نقرأ الا الكتب التى تعضنا وتخزننا . فاذا لم يوقظنا الكتاب الذى نقرأه بضربة من قبضته تنزل على مخنا ، فما جدوى الكتاب أن نقرأه ؟ .. اننا نحتاج الى الكتب التى تؤثر علينا كما تؤثر المحنة المؤلمة شديدة الألم ، أو كما يؤثر فينا موت انسان كنا نحبه أكثر من حبا أنفسنا ، لا بد أن يكون الكتاب كالبلطة التى تحطم البحر المتجمد فينا » . ثم تقترب الى تحديد أوضح نسبيا لمهمة الأدب عنده هو بالذات ، يقول : « اننى أحاول دائما أن أحكى شيئا لا يمكن حكايته أن أوضح شيئا لاسبيل الى توضيحه ، أن أقص قصة ما يعتمل فى عظامى وما يمكن أن يجيش فيها بكل هذا يتم فى اطار عام قلنا من قبل انه اطار من نسيج الأحلام ، وما بداخله قطع من الحياة فيها الأفكار والنقد ، على شكل صور ، ويمكن أن

انما « ثم يفصل الفصل الأول من الرواية كيفية الاعتقال ومعناه . كان يوزف ك ينتظر في ذلك الصباح أن تدخل عليه طاهية البنسيون الذي يسكن فيه بالافطار ، ولكن الذي دخل عليه رجل تبين أنه حارس . وعلم يوزف ك أن هذا الحارس ومعه زميل له قد أتيا لاعتقاله . وكان من الطبيعي أن يسألها عن الجرم الذي اقترفه حتى يستحق الاعتقال ، ولكنهما أفهماه أنهما مكلفان بعملية معينة هي الاعتقال ، وأنهما لا يعرفان السبب لأن ذلك ليس من اختصاصهما ، وأمره بأن يظل في حجرته تنفيذاً لأمر الاعتقال وأبلغاه أن رئيسهما سيأتي بعد قليل . وظل يوزف ك بلا افطار يحاول جهده أن يفهم ما حل به ويحاول جهده أن يجد من المستندات والوثائق التي لديه ما يثبت براءته ولكن بلا جدوى . وما لبث يوزف ك أن اكتشف أن الحارسين قد استوليا على طعامه وتركاه جائعاً ، فعلم انهما لا خلاق لهما ، وتأكد من ذلك عندما حاول أن يأخذ منه ملابسه بحجة انه لن يحتاج اليها ، فما شأن المعتقل بالملابس ؟ وعندما أتى رئيس الحارسين اكتشف فيه يوزف ك العجرفة والانحراف ، وحاول أن يعلم منه السبب الذي اعتقل من أجله فلم يصل الى نتيجة ، فلم يكن من واجبه اعطاء تفسيرات أو اعلان المعتقلين بسبب اعتقالهم . وبمرور الوقت اتضح ليوزف ك أن اعتقاله من نوع آخر ، فهو لن يؤخذ الى معتقل أو سجن ، بل سيترك كما هو يذهب الى عمله كالمتاد ، ويعود من عمله الى البيت ، ولكنه معتقل لأنه تلقى خبراً من الحراس بذلك ، وعلم ان المحكمة ستتصل به لتحديد له مواعيد الجلسات . وبالفعل تمكن يوزف ك من الذهاب الى البنك ، وفرح لأن أحداً لم يلحظ تأخره عن مواعده . وبدأ وهو في

البنك يفكر في الموضوع ، ويعتقد أن ما حدث له مفاجئة شلت قدرته على التصرف لأنها حلت به في البيت بينما كان في السرير ، وظن ان لو حدث له هذه الحادثة الغريبة وهو في البنك ، لاستطاع أن يتصرف ويدافع عن نفسه ، ويثبت براءته وفي المساء يعود يوزف ك الى البيت ، الى البنسيون الذي يسكن فيه ، ويقرر أن يتحدث مع صاحبة البنسيون السيدة جروباخ ليفسر لها ما حدث ، ويقرر كذلك أن يتحدث مع آنسة تسكن في الحجرة المجاورة هي الآنسة بورسترن ليعتذر لها عن دخول الحراس حجرتها في غيابها بسببه ، ويعتذر عن الاضطراب الذي أحدثه الحراس فيها . أما السيدة جروباخ فلم تكن تنتظر منه تفسيراً أو اعتذاراً ، بل انها أوصته ألا يسرف في تصعيب الأمور السهلة ، وفي نهاية لقاءهما حكى له عن الآنسة بورسترن انها تصادق الشبان وتسير معهم في أماكن تثير الشبهة فاغتاظ يوزف ك لذلك ونهرها . وأما الآنسة بورسترن فلم تأت الا متأخرة جداً ، وكانت متعبة أشد التعب ومن ذلك ذهب يوزف ك اليها ، ليعتذر لها ، وقبلت الآنسة ذلك على مضض ، وقالت انها تفكر في الانتقال للعمل في مكتب محام ، ففكر انها قد تساعد ، وحكى لها ما حدث واعتذر ولكنها لم تجد بالحجرة ما يوجب الاعتذار العاجل على هذا النحو ، وأبلغها بأن السيدة جروباخ تتقول عليها ، ووعدا بمساعدتها ، ثم ان يوزف ك تورط مع الآنسة بورسترن وحاول معانقتها وتقبيلها فتمنعت ، وفي هذه الأثناء دق أحدهم على الباب واستنتجا انه لابد الضابط لانتس قريب السيدة جروباخ . ثم عاد يوزف ك الى حجرته . وفي يوم من الأيام تلقى يوزف ك مكالمة تليفونية تفيد بأن الجلسة الأولى للتحقيق ستكون يوم الأحد التالي .



وعلم أن يوم الأحد قد اختير بالذات حتى لا يتعطل عن عمله. وسى يوسف ك أن يستعلم عن أمرين أساسيين أولهما مكان المحكمة بالضبط والثاني موعد بدء المحاكمة . ولكنه فكر أن الجلسة لا بد ستبدأ في الساعة التاسعة شأن كل الجلسات ، فلما كان يوم الأحد ذهب الى الضاحية التي قيل له ، بدون تحديد ، ان المحكمة ستعقد فيها ، فتبين أن البيوت هناك متشابهة ، ولكنه اختار بيتا منها كانت به مجموعة محلات لها لافتات عرف لك بعضها من عمله في البنك ، ودخل البيت فوجد الأدوار تنقسم الى حجرات كثيرة متتالية ، وتخرج من السؤال في كل حجرة هل المحكمة بها ، وفكر في أن ينظر في الحجرات التي تكون أبوابها مفتوحة ، وأن يقرع أبواب الحجرات الأخرى ويسأل عن أى شيء ، عن نجار اسمه لاتنس ، وبهذا يتمكن من النظر الى داخل الحجرة . وبعد سعى طويل وصل الى حجرة كانت بها امرأة تغسل الملابس فسألها عن النجار لاتنس فأدخلته في حجرة مجاورة تبين أن المحكمة كانت منعقدة بها . لم تكن هذه المحكمة من نوع المحاكم المعروفة بل كانت محكمة غريبة ، لا يعرف الانسان فيها بالضبط أين من له ومن عليه . ولا يستطيع الانسان أن يصل الى شيء . المهم أن يوسف ك تحدث ووجه اللوم الى المحكمة لأنها تقوم على أساس غير صحيح وذكر على سبيل المثال حالة الحارسين اللذين أخذوا منه طعامه وحاولا أن يجرداه من ثيابه ظلما وعدوانا . وترافع يوسف ك ما شاء ، دون أن يعرف ما هي القضية ، ودون أن يهتم بذلك اهتماما قليلا أو كثيرا . وأثناء مرافعته فتحت المرأة الغسالة التي أدخلته الى هذا المكان الباب وراحت تعانق شابا وتستبيح لنفسها

معه ما أدهش يوسف ك أشد الدهشة . وترك يوسف ك المحكمة نائرا حانقا .

وانتظر أن تأتیه مكالمة تليفونية أخرى بموعد الجلسة التالية فلم تأتیه . فظن أن الجلسة الثانية ستعقد في المكان نفسه في الموعد نفسه ، فذهب الى هناك في يوم الأحد التالي وقرع الباب ففتحت له المرأة الغسالة . ووجد القاعة خالية ، وراح يتحدث مع المرأة فتبين أنها زوجة خادم المحكمة ، وأن القاعة التي تعقد فيها المحكمة هي سكنها الخاص تخليه يوم تنعقد ثم تشغله بعد أن تنتهى المحكمة واكتشف أن أحوال هذه المحكمة غريبة جدا ، فالكتب التي على منصة القاضى ، ليست كتب قانون بل كتب فيها صور مخلة بالأداب ، وعلم من المرأة أن الشاب الذي صحبت معه يوم الجلسة الماضية طالب له صلة قوية بالقاضى ، وعلم كذلك أن المرأة عشيقة القاضى ، وأنها تود أن يغازلها هو أيضا . وفهم يوسف ك من المرأة الخليفة السافلة أنها ذات نفوذ كبير في المحكمة ، نظرا لعلاقتها الشخصية بالقاضى وغيره ، وقالت له انها تود مساعدته ، وعرفته بأن نظام التقاضى أمام هذه المحكمة مختلف تماما عن نظام التقاضى أمام المحاكم المعروفة ، وأن العلاقات الشخصية بالقاضى جديرة بالوصول بالقضية الى النجاح . وفجأة أتى الطالب برتولد وحملها وجرى بها ليقدمها الى القاضى وتسلق الطالب بها درجا صغيرا هناك . ووقف ك عند أول الدرج يفكر فى الصعود وبينما هو واقف أتى الخادم واقترح على ك أن يصعدا معا هذا الدرج فانه يوصل الى مكاتب ديوان المحكمة . ووجد ك الديوان عجيب الشكل ، فهو عبارة عن حجرات قدرة غير منظمة متخذة على سطح البيت

ووجد أصحاب القضايا ينتظرون وهم فى حالة يرثى لها من الذلة والمهانة . ولم يحتمل ك البقاء فى الديوان فقد خارت قواه وأصيب بما يشبه الاعماء . ولم يكن لهذه الحالة من الاعماء من سبب الاهواء الديوان ، من اعتاد عليه تخور قواه اذا خرج الى الهواء العادى ، ومن لم يعتد الاعلى الهواء العادى فانه تخور قواه اذا تنسمه . وبالفعل لم يفق ك الا عندما خرج الى الهواء الخارجى . - وفى البنسيون يحاول ك أن يصلح أموره مع السيدة جروباخ والآسة بورستتر ، ولا يوضح الفصل الرابع من الرواية الا أن الآسة بورستتر كانت ترفض مقابلة ك ، وانها ضمت اليها فى حجرتها ساكنة أخرى هى الآسة موتاج ، وأن هذه الآسة تحدثت مع ك بتفويض من الآسة بورستتر حديثا يفيد أن على ك أن يعتبر ما كان بينه وبين بورستتر، ان صح أن شيئا كان بينهما ، منتهيا . - وفى البنك يستمر ك فى عمله لا يفكر فى القضية الاماما وفى أمسية من الأمسيات بينما كان يمر بباب حجرة مهجورة بالبنك سمع بداخلها أنات ، وفتح الباب ودخل فاذا بها منظر عجيب . رأى فيها الحارسين اللذين أتياه بأمر الاعتقال وأكلا افطاره وحاولا سرقة ملابسه ، عارين ورأى جلادا ينهال عليهما بالسوط . واكتشف أن هذا العقاب قد حل بهما نتيجة لشكواه منهما ، فالمحكمة لاترضى بأن يرتكب حراسها مثل هذه الأعمال . كذلك اكتشف أن هذا العقاب من شأنه أن يحيل بين الحارسين وبين الترقى، الترقى الى الدرجة الأعلى وهى درجة الجلاد، وتأثر يوزف ك لما يحدث للرجلين وحاول جهده أن يمنع الجلاد عنهما ، وقدم له الرشوة ، ولكن الجلاد رفض . وخرج ك من الحجرة حائرا ، ولم يستطع أن يفعل شيئا أكثر من توجيه الرجاء الى

خدم البنك أن ينظفوا تلك الحجرة المهجورة مما بها من مهملات .

وبينما كان يوزف ك فى عصر يوم من الأيام فى البنك مشغولا بالكثير من الأعمال دخل عليه عمه ، الذى قدم من الريف خاصة ليحدثه فى موضوع القضية . وقد علم العم بالقضية من ابنته وهى خطيبة يوزف ك التى أهملها اهمالا . وبدأ العم يلوم ك لوما شديدا على ارتكابه ما استتبع هذه القضية ، ثم بين ليوزف ك أن هذه القضية تهم الأسرة كلها وأن هذا هو السبب الذى من أجله أتى اليه ، ولما كان ك يخشى أن يعلم أحد من البنك بالقضية فقد أخذ عمه وخرج به من البنك مسرعا . وسارا يتحدثان فى الطريق . وفجأة نادى العم سيارة أجرة ودفع ك الى داخلها وركب هو كذلك واتجها الى المحامى الدكتور هولدا . كان هذا المحامى من أصدقاء العم القدماى ، واعتقد العم انه سيساعده فى هذه القضية العجيبة . وعندما يصل الاثنان الى حيث يقيم المحامى يقال لهما انه مريض ، ولكنهما يدخلان رغم ذلك . ويقابلان بالباب ممرضة المحامى «لينى» فيستحسنها ك ، ويتشاجر معها العم . وفى حجرة المحامى يجده ك وعمه المحامى راقدا فى سريره ، متصنعا المرض ، ويبدأ العم القصة فيظهر المحامى اهتماما بها ويذكر للضيفين أن مدير ديوان المحكمة يزوره الآن ، وبالفعل ينظر الاثنان الى ركن الحجرة فيجدا مدير ديوان المحكمة جالسا، ويتقدم بكرسيه ويعرض مياه لمساعدة ك . ولكن ضجة تحدث، فيقوم ك ويخرج من الحجرة ليرى ما الخبر . فاذا لينى هى التى أحدثت الضوضاء لتخلو بيوزف ك ؟ . وتأخذ لينى ك الى حجرة مكتب المحامى وتلهو معه ، وتحكى له فى الوقت نفسه تفاصيل أخرى عن المحكمة ، كلها تتجه

الى أن هذه المحكمة غامضة كل الغموض وأن  
الإنسان لا يمكن أن يصل فيها الى شيء الا بالصلات  
الشخصية ، وعرضت عليه أن تساعد به لما من  
صلات، شخصية . ويمضى الوقت ويكون على ك  
أن ينصرف . وحين يبلغ ك الشارع يجد عمه واقفا  
متحسرا على الفرصة التي ضيعها ك بحقه ،فرصة  
استعداد مدير الديوان لمساعدته . ويذهب ك أكثر  
من مرة الى المحامى هولد ويتباحث معه فى  
القضية ، وفى كل مرة تزداد حيرته ، فالمحامى  
يريد أن يقدم مذكرة ، ولكنه يحجم عن تقديمها ،  
ويعل ذلك بأن المحكمة لا تعترف رسميا بالمحامين،  
وان كانت تسكت عليهم ، لأسباب كثيرة منها أنها  
تحتاج اليهم فى حل القضايا البسيطة والقضايا  
المعقدة لأن قضاة المحكمة لا يستطيعون تصريف  
هذين النوعين من القضايا ، لعدم احتكاكهم  
بالجمهور .

ويفيض بيوزف ك الكيل ، وتضطرب أحواله  
فى البنك فلا يعود يستطيع تصريف ما كان يستطيع  
تصريفه من الأعمال ، وهنا يقرر ك أن يسحب  
قضيته من المحامى وأن يقوم هو بالدفاع عن نفسه  
وكتابة المذكرة التى تقدم للمحكمة بهذا القصد.  
وبينما هو يقلب فكره التقى فى البنك برجل من  
رجال الصناعة قال انه يعرف أحد الفنانين  
يحترف التصوير ، وله علاقة كبيرة بالمحكمة وأن  
هذا المصور بود مساعدته . فذهب اليه يوزف ك  
ووجد أنه يسكن فى حجرة عجيبة بيت عجيب ،  
ووجد على السلم مجموعة من البنات الصغيرات  
المتبجحات ، علم من المصور أنهن من المحكمة ،  
فكل شيء هو جزء من المحكمة . وجرى بين يوزف  
ك والمصور حديث طويل عن المحكمة والعدالة ،  
ووجد المصور قد صنع للمحكمة صورة تمثل

العدالة ، ولكن ربة العدالة فيها لاتقف ساكنة  
معصوبة العينين حاملة ميزانا كما هو المعروف عنها  
لا انها فى الصورة المطلوبة من المصور عبارة  
عن خليط من ربة العدالة وربة الصيد وربة النصر  
وأراد يوزف ك أن يخرج ، ولكنه لم يكن يجب  
أن يخرج من الباب الذى تنتظر عنده البنات ،  
ولذلك أخرجه المصور من باب آخر ، اكتشف ك  
أنه يمر بديوان محكمة مثل الديوان الذى عرفه  
من قبل ، وأفهمه المصور تيتوريللى أن المحكمة  
لها دواوين فوق أسطح البيوت كلها ، وسار ك  
فى مسر طويل بين مكاتب الديوان ، وقد وضع  
على أنفه منديلا حتى لا يتنفس هواء الديوان اتقاء  
للإصابة بالاعماء . ولكن ك تبين أن جهده كان عبثا  
وأن البنات علمن بحيلته ولاحقنه من الناحية  
الأخرى . - وقرر ك أن يذهب الى المحامى  
هولد ويبلغه بأنه سحب منه توكيله عنه فى القضية  
وعندما ذهب يوزف ك الى سكن المحامى فتح  
له الباب عميل آخر من عملاء المحامى اكتشف ك  
أنه على علاقة بلىنى . كان هذا العميل هو التاجر  
بلوك ، الذى علم ك منه ان المحامى يتولى قضيته  
منذ أكثر من خمس سنوات ، وانه يكرس كل قوته  
للقضية ويخصص لها كل ماله ويكلف بالدفاع عنه  
الى جانب الدكتور هولد خمسة محامين غيره.  
لأنه لا يريد أن يضع امكانية لكسب القضية .  
كذلك علم ك من التاجر بلوك انه يذهب كل يوم  
الى ديوان المحكمة محاولا فعل شيء فى قضيته ،  
وعلم أن المحاكمة تتطلب من أصحاب القضايا أمورا  
لا قدرة لهم على فهمها ، ولذلك ينصرفون عن العقل  
الى الخرافة . وتحدث التاجر عن خبرته بالمحامين  
فاتتقد الدكتور هولد الذى يعتبر نفسه من كبار  
المحامين وهو من صغارهم ، الذى يعتقد أنه يكتب

أفضل المذكرات ، وما مذكراته الا خليط من الغث والسمين . وبينما يدخل ك على المحامى ويجلس عنده ليفهمه انه خلع عنه توكيله فى القضية يشاهد منظرا يدهشه وهو منظر شجار بين المحامى وبين عميله بلوك ، لأن المحامى هولد اكتشف أن عميله يوكل عددا آخر من المحامين فى القضية ، ويوشك هذا الشجار على أن ينتهى بكشف المحامى خبرا عرفه ، وهو أن قضية التاجر قد صدر فيها حكم على سبيل الخطأ كما يحدث أحيانا ، وان هذا الحكم فى الغالب فى غير صالحه . ( هذا الفصل لم يكتمل ولذلك لا نعلم ما حدث للتاجر بالضبط ولا نعلم قيمة ذلك وأثره على يوزف ك )

وتستمر حياة يوزف ك فى البنك على النحو المضطرب الحائر الذى انتهت اليه ، الى أن يتلقى من البنك تكليفا بمرافقة عميل ايطالى مهم فى جولة يطلعه فيها على معالم المدينة ، وعلى الكنيسة خاصة واستعد يوزف ك لتلك المهمة ما استطاع ، ولما أوشك موعد الخروج اتصلت لىنى بيوزف ك تليفونيا لتسأله عن حاله ، ولما علمت أنه ذاهب الى الكنيسة قالت له عبارة غير محددة هى : «انهم يستفزونك» وأسرع الى الكنيسة وحده فقد كان المقرر أن يتقابل مع الضيف هناك . ولكنه لم يجد الضيف الايطالى فانتظر جالسا تارة ، وقام يتطلع على ما بالكنيسة تارة أخرى ، وكانت الكنيسة شبه خالية من الناس واهتم ك خاصة بصورة تمثل دفن المسيح ، ثم بالتطلع الى منصات ظن أنه لم يرها من قبل ، ورأى ك بالكنيسة رجلا من رجال الدين ، فرسم الصليب واعتقد ان رجل الدين سيلقى عظة ، ولكن الكنيسة كانت خالية من الناس . وأخيرا ناداه رجل الدين باسمه ، وقال له انه يبحث عنه وانه يعلم أنه متهم وسأله رجل الدين هل يعلم أن قضيته بلغت مرحلة

سيئة وهل يعلم النهاية . وتحدث ك عن محاولاته وقال انه يبحث عن مساعدة ، وانه يعول على مساعدة النساء لأن النساء لهن سلطة كبيرة ، خاصة وان المحكمة تتكون من الفجرة أزيار النساء ومالبث ك أن علم أن رجل الدين هو أيضا من المحكمة ، وان ظن أنه حالة استثنائية . وتبين رجل الدين أن يوزف ك مخدوع فأوضح له أن موضوع الخداع والاندفاع هو أول موضوع يتعرض له القانون وانه يتعرض له فى صورة حكاية تقول ، هناك على باب القانون حارس أتى اليه ذات يوم رجل من الريف ورجاه أن يدعه يدخل الى القانون . ولكن الحارس قال له انه لا يستطيع أن يسمح له بذلك الآن . وسأل الرجل هل يمكن ذلك فيما بعد ، فقال الحارس ربما ، ولكن ليس الآن . ولما كان باب القانون مفتوحا دائما فقد انحنى الرجل لينظر من خلاله الى الداخل . ولما رأى الحارس فعلة الرجل قال له ، انه مادام يهتم برؤية القانون ، فعليه أن يجرب الدخول برغم الحظر ، وأفهمه انه لا بد أن يعى مع ذلك أنه أى الحارس شديد القوة وانه أصغر الحراس ، وأن قاعات القانون عليها حراس بعضهم أشد من بعض ، حتى ان منظر ثالثهم مثلا لا يمكن احتماله ، فلما رأى الريفى ذلك ، قرر أن الخير فى الانتظار . وانتظر الريفى الأيام والأعوام ، وهو لا يرى الا الحارس الأصغر . والحارس الأصغر يستجوبه من حين لآخر ، ولكنه لا يدعه يدخل . حتى ضعف بصره ولم يعد يفرق بين الظلام والنور ، ولكنه كان يرى بريقا يأتيه الآن ثابتا من باب القانون . ولما أوشك الرجل على الموت نادى الحارس ليسأله سؤالا أخيرا . وكان هذا السؤال هو لماذا لم يأت طوال السنين الماضية أحد يريد الدخول

سواى ؟ وأجابه الحارس غاضبا بأن هذا الباب المفتوح هو باب له هو وحده ، وأنه سيقفله الآن - هذه هى القصة التى حكها رجل الدين ليوزف ك .

وأسرع ك يقول بأن الخداع هنا هو خداع الحارس للرجل الريفى ، فقد كان يعلم أن الدخول الى القانون محظور على الناس ، الا على هذا الرجل ، ومع ذلك منعه .. ويدخل ك مع رجل الدين فى حديث عن العلاقة بين التزام العدالة وبين تأدية الواجب ، بين الفهم الصحيح والفهم الخاطىء ، بين الخوف والتخويف ، وهو حديث ملىء بالمتناقضات الشديدة . ويلخص الكاهن رأيه فى : « ما ينبغى أن يعتبر الانسان كل شىء حقا بل ينبغى أن يعتبره ضروريا » ويتلخص رد ك فى عبارة كأنها الحكمة : « ان الكذب ليتحول الى نظام للعالم » . وعلم ك وهو يوشك أن يخرج من الكنيسة أن الكاهن هو كاهن المحكمة وأن المحكمة تستقبله دائما عندما يأتى وتبعده عندما ينصرف ، وأنها فى الحقيقة لا تريد منه شيئا .

وفى ليلة عيد ميلاد يوزف ك الواحد والثلاثين أى بعد مرور عام بالضبط ، كان ك فى حجرته يقدم اليه رجلان وقالاه انهما يريدانه أن يأتى معهما وفكر ك فى قرب النهاية . ودهش لأن منظر الرجلين كان منظر الممثلين أو المغنين ، وسار معهما فى الطريق وقد تأبطاه ، هذا عن يمين وذاك عن شمال ولم يفكر فى المقاومة ، بل تبع فى سكون ، وفرح الرجلان بهذا وتركاه يحدد الطريق هو ذاته . ورأى ك ، أو اعتقد أنه رأى الآنسة بورستتر تخرج من حارة وتتجه الى الميدان ، فقرر أن يكون طريقه خلفها ، ولكن الآنسة انحرفت الى حارة جانبية ، فترك مسارها ، واتبع الرجلين . فأخذاه عبر كوبرى

وسارا به خلال حارات وحارات . وفى الطريق قابلهم رجال من رجال الشرطة ، ولكن ك كان يدفع مرافقيه الى الأمام . لقد قرر أن تكون نهايته هادئة وألا يقول عليه أحد انه يريد أن يبدأ قضيته وهى فى نهايتها . وخرجوا من المدينة الى الحقول حتى وصلوا الى محجر صغير قاحل مهجور وبجانبه بيت شكله شكل بيوت المدينة . فوقفوا ، وكان المكان يخيم عليه ضوء القمر والسكون والفطرة . وذهب أحد الرجلين الى ك وجرده من ملابسه ، بينما راح الآخر يبحث فى المحجر عن مكان مناسب وأجلس الرجلان ك على الأرض ، وك منصاع لهما تماما . وأخيرا أخرج أحدهما سكيننا طويلة رقيقة مسنونة الحدين ، وقبع الآخر على رقبة ك ، بينما دس صاحب السكين السكين فى قلبه . وكان آخر ما قاله يوزف ك عن نفسه : « مثل الكلب » قالها وكأنه يريد أن يبقى خجله بعد مماته .

سادسا : حول رواية القضية :

بدأ فرانتس كافكا يكتب هذه القصة فى عام ١٩١٤ فى أواخر شهر سبتمبر وفرغ مما أنجزه منها على وجه السرعة ، ولكنه لم يتمها قط ، وليس بين أيدينا ما يفيد انه كان يريد اتمامها . وواضح من العرض الذى قدمناه أن هناك موضوعات لم تكتمل ، منها مثلا دور الآنسة بورستتر . فقد تحدث كافكا فى فصل كامل عنها ، ثم استطرد فى فصل تال الى حديث عن صديقتها ، والى ما يوحى بأن ك كان قد تعلق بالآنسة بورستتر واعتقد أنها بالنسبة لحياته تمثل طريق الخلاص . ويؤكد ذلك ماورد فى الفصل الأخير عندما رآها أو ظن أنه رآها فأراد أن يتبعها . كذلك الفصل الذى

تحدث فيه عن المحامى والفصل الخاص بالتاجر ، كلها فصول غير مكتملة . ولكن الموجود بين أيدينا فى هذا العمل العظيم يكفى لتصور ما قصد اليه كافكا ، ويكفى كما هو ليكون مثالا على الفن الذى ابتدعه كافكا وبلغ فيه قمة لا يباريه فى بلوغها منافس .

الخط العام فى هذه الرواية هو محنة الانسان وحيرته أمام العدالة ، ان العدالة موجودة والجميع يتكلمون عنها ، ولكن الوصول اليها غير ممكن . والعدالة عنصر لا محيص عنه فى حياة الانسان حياة سوية ، لأن الحياة النفسية للانسان تعتمد على أحكام الآخرين عليه وعلى أحكامه على نفسه ، فان اختلفت هذه الأحكام وأصابها الكذب أو اعترها الخداع أو تجردت من المنطق ، اختلفت حياة الانسان النفسية تماما ، فأصبح لا يتكامل مع نفسه ولا يتكامل مع مجتمعه أو مجتمعاته ، وتكون نهايته مؤكدة . هذا الخط العام هو بمثابة الهيكل العظمى للرواية أما بقية الكائن الحى ، أما اللحم والشحم والأعضاء والأطراف فهي مجموعة هائلة من الصور التى برع فرانتس كافكا فى تصويرها . وهذه الصورة خليط من الهزل والجد ، أو هى صور من الجد خلخل مصورها عنصرا من عناصرها ، فاكتمت سمة الهزل ، وهذا التكتيك الجاد الهازل يطابق أفكار فرانتس كافكا عن الدنيا والناس والوجود . والحقيقة أن المزج بين الضدين أمره عجيب .

انك تجد فى أعمال كافكا الهدوء الذى يدفع بالقارىء الى الثورة ، وانك تجد فى أعمال كافكا التشاؤم الذى يحث القارىء على التماس سبيل التفاؤل وانك تجد فى أعمال كافكا تصويرا دائما للمظلم والباطل يدفع بالقارىء الى الايمان بالعدل والحق وانك تجد فى أعمال كافكا سلبية تدفع

بالقارىء الى الايجابية . لقد خط فرانتس كافكا لنفسه فى الفن خطة تقوم على الايقاظ وتوسل الى ذلك بصور تكلف فيها مبالغة فى أمور لا تنأتى فى الواقع على نحو مبالغ فيه - منها المصادفة - ومنها التورط - ومنها الحالات المرضية ( فكل شخصيات كافكا تقريبا شخصيات مريضة ) - ومنها الظروف المناخية أو الصحية أو الضوئية أو الصوتية أو البصرية غير الملائمة .

وايمان كافكا بالاصلاح ايمان لاشك فيه وحديث الاصلاح حديث يتكرر فى أعماله الفنية وفى رسائله ويومياته ، وسيله سبيل الاشتراكية ورواية « القضية » تختص بالدعامة الأولى : العدالة يوزف ك يقوم بمحاولات كثيرة لاصلاح نظام المحكمة التى وقع فى برائتها ويلقى أثناء محاكمته أمام قاضى التحقيق مرافعة هامة يدين فيها الفساد ، وان يوزف ك ليصمد أمام الصعوبات الفظيعة التى تعترض سبيله حتى ينهار فلا يستطيع الصمود ، وكيف له أن يصمد أمام صعوبات اجتماعية وهو فرد تصوره الرواية « كالمقطع من شجرة » ، لا نعرف له أصدقاء يندمج فيهم ، ولا نعرف له زوجة ولا خطيبة ، ولا نعرف له أقارب يختلط بهم ويختلطون به ، وهو بالاضافة الى ذلك دائم الريبة يعتقد أن الناس يتجسسون عليه ويتركون أعمالهم لملاحظته بأبصارهم ، ولاكتشاف أسرارهم ، ثم هو عظيم الحيرة يقع فى الفخ ولا يتصلص الا ليزداد تورطا فيه ، وأبرز ما يميزه هو أنه يتعجل ، وانما يتعجل لأنه يخدع . ليست رواية « القضية » إذن قصة اصلاح العدالة ، ولكنها قصة محاولة لفهم العدالة ولاصلاح مافسد منها ، وهى لهذا قصة غير مكتملة ، ولا يمكن أن تكتمل ، وآخر كلمة ينطق بها بطلها ، تحفز الى بداية محاولة جديدة ..

والرواية ذات شهرة عالمية ضخمة ، وقد ترجمت الى عدد كبير من اللغات ، الى كل اللغات الحية الشهيرة تقريبا ، وأكثر من اهتم بكافكا بأعماله الفرنسيون وعلى رأسهم أصحاب التعبيرية والتأثيرية والسريالية والوجودية . وزاد الاهتمام بكافكا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن تحولت حياة الناس فى أوروبا وأمريكا خاصة الى حياة يسودها الخوف ، وبعد أن تركز اهتمام الناس على تحديد مكان الانسان فى الكون . وقد حول أندريه جيد أديب فرنسا الكبير بالاشتراك مع المخرج والممثل المسرحى الفرنسى الشهير جان لوى بارو الى مسرحية مثلت فى باريس بنجاح كبير عام ١٩٥٠ . كذلك أنشأ بوريس بلاخروهاينتس فون كرامر صيغة أخرى غنائية صاغها موسيقيا الموسيقى النساوى جوتفريد فون آينم ومثلت فى زالتسبورج عام ١٩٥٣ .

سابعا : نماذج من رواية « القضية » :

تبدأ الرواية هكذا : « لابد أن أحدا كادليوزف لك لأنه اعتقل ذات صباح دون أن يكون قد اقترف ذنبا . لم تأت طبخة السيدة جروباخ التى يستأجر حجرة لديها هذه المرة ، وكانت تأتية كل يوم فى نحو الثامنة بطعام الافطار . ذلك شئ لم يحدث من قبل قط . وانتظر ك هنيهة وتطلع ورأسه مازال على المخدة الى المرأة العجوز التى تسكن قبالة التى راحت ترقبه بفضول لم يعهده فيها من قبل ثم دق الجرس وهو مندهش جائع فى وقت واحد . وسرعان ما دق أحدهم الباب ، ودخل عليه رجل لم يكن قد رآه فى المسكن قط من قبل كان هذا الرجل أهيف القامة ، ولكنه كان مع ذلك قوى البنيان ، وكان يلبس ثوبا أسود اللون به ثنيات

مختلفة وجيوب وأربطة وأزرار وحزام وكأنه حلة من حبل السفر ، وكان الثوب يبدو نتيجة لهذه الأشياء التى زود بها ثوبا عمليا جدا ، دون أن يتضح للمرء تماما فيم يستخدم . وسأله ك وقد اعتدل فى فراشه قليلا من فوره : « من أنت ؟ » ولكن الرجل تجاهل السؤال ، وكأنما كان ينبغى على الناس أن يقبلوا ظهوره هكذا ، واكتفى بقوله : « لقد دقت الجرس » وقال ك : « نعم ، لتأتى الى الطاهية » أنه « بطعام الافطار » ، وحاول فى أول الأمر أن يتبين من يكون هذا الرجل ، وهو صامت يستعين بالاتباه والتفكير . ولكن هذا الرجل لم يستسلم مدة طويلة لنظراته ، بل اتجه الى الباب وفتح قليلا ليقول لشخص كان على ما يبدو يقف بجواره : « انه يريد أن تأتية » أنه « بالافطار » وتبع هذا ضحك قليل فى الحجرة المجاورة ، لم يتأكد من نبرته هل صدر عن واحد أو اشترك فيه كثيرون . وعلى الرغم من أن الرجل الغريب لا يمكن أن يكون قد عرف على هذا النحو شيئا لم يكن يعرفه من قبل ، فقد قال لك فى صيغة البلاغ : « هذا محال » فقال ك : « هذا شئ جديد لم أعهده من قبل » ثم قفز من فراشه ولبس بنطلونه على عجل »

وهذا جزء من مرافعة ك فى المحكمة أمام قاضى التحقيق : « لست أريد أن ألقى نجاحا كالنجاح الذى يلقاه المفوهون من الخطباء ، ولعل مثل هذا النجاح شئ لاقدرة لى على بلوغه . والظاهر أن السيد قاضى التحقيق يجيد الخطابة أكثر منى بكثير ، فاجادة الخطابة شئ من صميم مهنته . وانما أريد أن أناقش مناقشة عامة فسادا عاما . اسمعوا : لقد اعتقلت منذ عشرة أيام تقريبا ، وأنا أضحك من واقعة الاعتقال فى حد ذاتها ، ولكن هذا موضوع

وهو يجلس فى الكرسى الوثير الذى يخص الآنسة المذكورة جلسة تمثل العجرفة السخيفة ؟ سادنى انه لم يجب فى الحقيقة بشئ ، ربما لأنه لم يكن فعلا يعلم شيئا عن سبب اعتقالى . لقد اعتقلنى ورضى بهذا . بل انه فعل أكثر من هذا ، فقد أدخل فى حجرة الآنسة ثلاثة موظفين حقراء من البنك الذى أعمل به ، عمدوا الى مد ايديهم الى صور فوتوغرافية خاصة بالآنسة والى احداث الاضطراب فيها . كان احضار هؤلاء الموظفين يهدف الى هدف آخر بطبيعة الحال ، كان عليهم هم وصاحبة البنسيون وخادمتها أن يشيعوا خبر اعتقالى وأن يضرروا بسمعتى بصفة عامة وأن يهزوا مركزى ومكاتتى فى البنك بصفة خاصة . ولكنهم لم يوفقوا فى شئ من هذا أدنى توفيق ، حتى صاحبة البنسيون التى أسكن لديها ، وهى انسانة بسيطة جدا - وسأذكر اسمها هنا بالتشريف والتقدير السيدة جروباخ - حتى السيدة جروباخ كانت من النباهة بحيث فهمت أن هذا الاعتقال لايزيد عن أن يكون تهجما يقوم به جماعة من قبيل صبية الحارة الذين لا يجدون من يرعاهم . وأنا أكرر أن ماحدث لى من جراء الموضوع كله لايعدو شيئا من الحرج والغضب العابر ، وأتساءل أما كان من الممكن أن يؤدى الى نتائج أنكى بكشير ؟ »

دكتور مصطفى ماهر

ليس هنا مكانه . لقد فوجئت بهجوم يقع على وأنا فى الفراش ، فى وقت مبكر من الصباح ، وربما كان لدى من اعتقلونى أمر باعتقال مبيض حيطان لعله برىء مثلى تماما ، فاختارونى أنا ، وأنا لا أستبعد هذا بعد أن سمعت كلام السيد قاضى التحقيق . كانت الحجرة المجاورة لحجرتى يشغلها اثنان من الحراس الغلاظ الشداد ، لو كنت أنا من قطاع الطريق الخطرين ، لكان من الواجب عليهم معاملتى معاملة أفضل من تلك التى عاملونى بها . لقد كان هذان الحارسان علاوة على ذلك من الرعاع عديمى الأخلاق ، فملا أذنى بالكلام الفارغ وأرادا أن أقدم لهما رشوة ، وأرادا أن يأخذا منى ملابسى بالحيلة بعد أن سردا على من الادعاءات ما سردا ، وأرادا أن يحصلا منى على المال بحجة احضار افطار لى بعد أن التهما طعام افطارى أنا بلا حياء أمام عيني . ولم ينته الأمر عند هذا الحد . فقد أخذت الى حجرة ثلاثة لأمثل أمام المفتش . كانت تلك الحجرة حجرة آنسة أقدرها جدا ، وكان على أن أرى كيف دنست الحجرة بسببى ، بدون ذنب منى ، نتيجة لوجودى ووجود الحارسين والمفتش . لم يكن من السهل أن يبقى الانسان هادئا . ولكنى تمكنت من البقاء هادئا . وسألت المفتش بمنتهى الهدوء - ولو كان المفتش حاضرا الآن هنا لأكد كلامى - عن سبب اعتقالى . فيماذا أجاب المفتش ، الذى أراه الآن فى مخيلتى